في الأدب الانجليزي

ماثيـــو أرنولد

Mathew Arnold

للأستاذ خيري حماد

— ٤ —

آراؤه في التربية :

عند ما انتخب أرنولد لمنصب مفتش المعارف قامت هنـاك معارضة قوية من قبل رجال الدين . فقد كان هنالك اتفاق بين الحـكومة والـكنيسة يقضي بانتخاب أحد رجال طائفة الاكليروس لشغل هـذا المنصب العظيم . ولذا لم يكن من المستطاع انتدابه للتفتيش على مدارس الـكنيسة ؛ بل اقتصرت مهمته على زيارة مدارس الحـكومة والمدارس الأهلية .

وكان من واجبه مراقبة زمرة المفتشين لأن الحـكومة وضعته رئيساً عليهم. وعندما كانت الحـكومة تقصد تشريع قوانين جديدة وأنظمة حـديثة لادارة المدارس كانوا يستشيرونه ويسيرون على ضوء آرائه ونظرياته . ومن أمثلة هذه القوانين الخاصة مشكلة تدريس اللغة الانـكليزية في المدارس ؛ فكانت لمدة خلت موضوعا اختيارياً مثله كمثل الدروس الأخرى ، كعلم الجغرافية والعـلوم الابتدائية الأخرى . ولـكن أرنولد حبذ تعليمها كدرس يجبر جميع الطلاب على تعلمه ودرسه فقد اعتبر كل نظام للتعليم العام ناقصاً إذا لم يبذل اهتماما كبيرا نحو لغة البلاد كشرط أساسي في تعلم العلوم الأخرى .

وكانت الطريقة الرئيسية التي يعتمد عليها في تنفيذ آرائه ، ووضعها موضع التجلة والاعتبار هي تقاريره السنوية التي كان يقرؤها نفر قليل من أفراد المجتمع الانـكليزي . وهذه التقارير تتضمن آراء قيمة ماذة في بعض المواضع الطريفة . وقد استنار خلفاؤه بهذه التقارير ؛ فأصبحت طريقتهم واضحة وعملهم سهلا لا يحتاج إلى كثير صعوبة وإجهاد .

« وقد اهتم أرنولد اهتماما عظيما في إدخال بعض العلوم الأولية التي يحتاج إليها الطالب كثيرا في حياته العملية المقبلة فهي تهيئه لقبول جميع النظريات والتعاليم التي جاء بها العلم الحديث . ومع أن علم الحساب والـكتابة والهجاء ضرورية جداً للطلاب إلا أنها لا تتعدى حدود الـكماليات بالنسبة إلى تهيئ الانسان لما يقبله من العلوم في حياته المستقبلة . فمقدرة القراءة لا تجعل من الفرد قادراً على تحضير المواد التي يحتاج إليها في حياته المقبلة[1] » .

نصح أرنولد الطلاب بمطالعة الـكتب التي تستحق القراءة . وفي رأيه أن دراسة الآداب من أهم العوامل التي يحتاج إليها الطلبة في حياتهم . فهي تساعد في تنمية ذوق الطلبة وقوة حكمهم وخاصة إذا حفظوا قطعاً من الشعر يحتاجون إليها في تغذية أرواحهم والترفيه عن أنفسهم . واعتقد أرنولد بأهمية دراسة قواعد اللغة في المدارس ودافع عن نظريته هذه بقوله : « إني لأعلق أهمية كبرى على دراسة قواعد اللغة في المدارس لمساعدتها الأطفال في التفكير وإشغال الناحية العقلية أكثر مما يحدثه علم الحساب ؛ فهي تعلم الانسان قواعد المنطق والمجادلة لأنها تختص بالـكلمات المحدودة لا بالأرقام والحسابات .

فالاعراب من أهم محتويات هذا العلم ولا يصعب على الطلبة دراسته قط إذا كان تعليمه بطريقة دقيقة منظمة . وقوة التحليل Onalysis في اللغة الانـكليزية تجعل من السهولة في مكان عظيم على الطلبة أن يطلعوا على القواعد بكل سهولة بدلا من تعليمهم

(١) Fitch : The Arnold. P. 182

الذي يستتر وراء مختلف الصور : صور المـذاهب والأوطان والأجناس ، التي لا ينفذ إلى ما وراءها إحساس عامة الناس . لقد كان « عالما » . والعلم قبس من نور الله ، لا شرقي ولا غربي .

لقد طالما تمنيت أن أعود فألقى أستاذي يوماً ما ، بعد غيبته عن مصر خمس سنين طوال ، فأحدثه عما أصنع بأيامي وعما تصنع بي الأيام . ولـكنه يفد إلى القـاهرة[1] ، فلا أراه على قرط ما كنت أتمنى أن أراه ، ثم هو يمرض ويموت دون أن أعلم من الأمر كله شيئا ، ودون أن أستطيع ، الآن ، شيئا سوى مثل هذه الـكلمات .

مصطفى الفولي

(١) لازم « الأستاذ ريتشي » طوال أيام مرضه ، وبقي الى جانبه حتى لحظاته الأخيرة ، تلميذه الدكتور محمد توفيق يونس ، ولولا ذلك لحز في نفوس تلاميذه الذين لم يسلموا بعقدمه أن يكون أستاذهم ، في سرير مرضه ، قد أحس بالغربة ، في بلد له فيه على مريديه الـكثيرين حق الأبوة الروحية.

إياها بتلك الطرق العقيمة القديمة ، التى كانوا يجرون فيها مجرى اللغات الجامدة . ويسرنى جدا أن أرى الأساتذة يعتنون بالطريقة التحليلية الحديثة فى تدريس علم اللغة[1] » .

وكان الناس يعتقدون أن اللغات اليونانية ، واللاتينية والفرنسية لاتخرج عن كونها دراسات ثانوية يقوم بها المتقدمون فى الثقافة والعلم . ولكن هذه الفكرة لم تكن لتتفق مع مذهب أرنولد فى التربية والتعليم . فقد آمن بوجوب تدريس مبادىء هذه اللغات أو إحداها على الأقل فى المدارس الابتدائية . وهذا الأساس يفيد جميع الطلبة الذين يقصدون الالتحاق بالكليات العالية والجامعات .

وأما الطلبة الآخرون الذين لا تساعدهم ظروفهم على متابعة دراستهم فان هذا الاطلاع ينفعهم فى تفهم الحقيقة الراهنة . وهى أن هنالك لغات غير لغتهم وعلوما غير علومهم .

وزيادة على ذلك فقد ارتأى أرنولد أن دراسة الرياضيات وعلم الفسيولوجيا والجغرافية الطبيعية والنبات هى من أشد الأخطاء التى يرتكبونها فى نظام المدارس الابتدائية . فان من الحماقة تعليم الأطفال اصطلاحات علمية لايتفهمونها ولا تستطيع أدمغتهم الفتية قبولها وإساغتها .

وأما الأساتذة فيجب أن يتوخى فى انتخابهم مقدرتهم العلمية وميلهم إلى المطالعة ومتابعة الدرس، وقد كتب فى أحد تقاريره: « إن الأستاذ الذى يستطيع أن يخلق فى طلبته الميل لتوسيع أدمغتهم ليستحسن منه أن يزيد فى معلوماته ومعرفته . وكلما استطاع أن يجعل آراءه العلمية واضحة أمكنه أن يجعل طلابه أكثر وضوحا واتساعا . وكم كان يسره أن يرى أحد الأساتذة الذين يشتغلون معه يتابعون دروسهم فى إحدى الجامعات .

وكنتيجة للجدل الدينى الذى قام فى عصره شعر أرنولد بفقدان الشعور الدينى فى تلامذته ؛ ولذلك فكر فى تدريس التوراة فى الصفوف الابتدائية لمعالجة هذه الحالة . ولتنفيذ هذه الفكرة وضع أرنولد كتابا جمع فيه الفصول السبعة والعشرين الأخيرة من إنجيل أشعيا وشرحها شرحا يمكن طلابه من فهمها حق الفهم .

وكان أرنولد يميل إلى النظام التربوى المتبع فى المدارس الفرنسية مع انتقاده إياها بعض انتقادات لا تخرج عن جادة الصواب ؛ فلا يوجد هنالك توافق وتعاون بين مختلف درجات العلم والتعليم . ولذلك فان نظام المدارس الداخلية لم يكن مقنعاً فان المربى الذى كان يعد مسئولا عن سلوك الطلبة وأخلاقهم يكن فى الحقيقة إلا واحداً منهم لا يسره أن ينم عن رفاقه أو يشى بهم .

وقد أعجب أرنولد بقلة النفقات التى يدفعها الطالب الألمانى لمتابعة دروسه . فكان هنالك فى بروسيا سلم تعليمى يمكن للطالب النابه ارتقاءه درجة إثر أخرى حتى يصل إلى القمة . وهذا النظام كان فى رأيه أحسن نظام عرفته أوربا منذ القدم ؛ فكان يحب إلى الحرية الانكليزية نظام الفرنسيين .

أما الجامعة فيجب أن تشمل ثلاثة فروع مختلفة ، الأول هو فرع التعليم العادى الذى يمكن لجميع الطلبة على اختلاف مواهبهم العلمية مزاولته والإستماع إلى محاضراته الكثيرة فى أى وقت شاؤوا . والثانى يشتمل على بعض الدروس الليلية التى تعد لرجال الأعمال أو الموظفين الحكوميين الذين لا يمكنهم حضور الدروس النهارية . والفرع الثالث هو فرع المراسلة الذى يلجأ إليه جميع الطلبة الذين لا تمكنهم ظروفهم من الحضور إلى المدرسة والاستماع إلى المحاضرات .

فلسفته الدينية :

اعتقد غلادستون أن أرنولد قد جمع إلى الديانة المسيحية فكرة الإخلاص والتكريس المقدس بطريقة لا يمكن لأصدقائه وأعدائه على حد سواء تفهمها وحل غوامضها . وأما بول فقد كتب عنه قائلا : « إن أرنولد وضع لنفسه هدفاً منطقياً معقولا ولكن تعابيره الجميلة كانت موانع هامة أمام تقدمه ونجاحه[2] »

لم يكن نقد أرنولد للتوراة نقدا قويا ولم يكن بحثه فيها بحثاً ناضجاً قيماً . وكتابه : « القديس بولس والبروتستنتية » لم يكن كتاباً دينياً حقيقيا . لكنه يخرج فيه على قواعد المسيحية الموروثة ، وعلى الكنيسة المتحدة أيضاً . فكان يؤمن بالمعجزات ويقف موقف الشك من شخصية الإله . فلم تكن عقائد الآخرين لتؤثر عليه أى أثر مهما كان ضئيلا .

أما كتابه « الأدب والعقائد » فيفوق سابقه بروعته و

(١) Report for 1872 Arnold

(١) Paul : Arnold. P. 130.

أسره . فهو جد مشبع بالعواطف الدينية المختلفة مما جعله أداة فعالة فى إعلاء الأخلاق وترقية أمرها . ويبحث هذا الكتاب فى المسائل الدينية بحثاً جدياً منطقيا . فيبرهن بشتى الطرق على أن الديانة الحالية قد أفسدت التعاليم الجميلة الكثيرة التى جاء بها السيد المسيح منذ القدم .

وكانت رغبته تنحصر فى منح الناس الحرية الكافية لتمييز الأشياء وتمحيصها . فقد رأى بعينيه التقلب والتطور الذى أخذ يدب دبيبه فى روح الدين وتعاليمه فلم يستطع احتمال ذلك . أصبح الناس لايؤمنون بالمعجزات ولا بوحى التوراة ؛ وقد خالف علماء الدين بقوله إن التوراة كتاب أدبى أكثر منه كتاباً علمياً . وليس من واجب الدين إلا أن يهتم بالأخلاق التى تكون ثلاثة أرباع الحياة الإنسانية . وصدق الديانة يجب أن يدعم بالتجارب العملية أكثر من الحقائق الفلسفية والأخلاقية . وخلاصة القول فقد عرف الديانة بقوله إنها الأخلاق تحفزها العاطفة والإخلاص .

أما إيمانه بالله فكان يختلف عن عقائد أهل عصره فلم يعتقد بشخصية الإله وأنه شخص له صفات تخالف صفات البشر ؛ بل قال بأنه القوة السرمدية الأبدية التى تسيطر على هذا الكون . وتظهر لنا عقيدته هذه من جميع الفقرات التى اقتبسها من التوراة وسجلها فى كتاباته فكان يثير لفظة الرب بلفظة الخالد .

والإيمان يجب أن يشمل جميع ما جاء به العهد الجديد وإلا فلا حاجة للناس بالإيمان ببعض أجزائه ونكران البعض الآخر . وأما عقيدة الإعتراف فيجب أن لا توضع بمنزلة عقيدة المعمودية ، وإذا كان الناس لايعتقدون الإعتقاد التام بجميع ما جاء فى التوراة وبصدق الرواية والزمان والمكان كان إيمانهم بالسيد المسيح أشبه بالخرافات والأمور الخيالية .

أما ثالث كتبه الدينية فهو كتاب « مقالات فى الكنيسة والديانة» . ويبحث هذا المؤلف فى وصف أحد المطارنة الملقب بطران بتلرفهو يقول عنه «إن هذا المطران لم يعترف بوجود الإله فحسب؛ بل بوجود الحياة المستقبلة ، وقد عرض للناس دوافع خطأ الإنسان وأغلاطه بطريقة دقيقة لاتقبل الشك والنكران . والعقل هو الحاكم الوحيد الذى يلجأ إليه الإنسان فى فهم دقائق الأمور وخفاياها فهو الأداة الوحيدة التى يمكننا بواسطتها تفهم جميع العقائد حتى وجود الإله وحقيقته[1] » .

(١) Paul. Ornald : P. 144.

وفى مقدمة هذا الكتاب نرى أرنولد يوضح عقائده بشكل جذاب فهو يقول : « إنى لأعتقد بخلود الديانة المسيحية نظراً لصدقها وصراحتها الطبيعيين . وإن هؤلاء الناس الذين اعتقدوا تخلصهم من حملها والإيمان بها تبعاً للعقائد الزائفة التى بشر بها الكثيرون من رجال الدين سيرجعون إليها مرة ثانية ويدرسونها درساً أوفى ، وأشد دقة وتفهماً[1] » . فكان يؤمن ببعث روح جديدة تطهر الديانة مما لحق بها من الأدران والأوساخ . وهذه الفكرة السامية تجاه الديانة المسيحية لتظهر لنا جلياً فى فقرة ثانية كتبها حيث يقول : « إن الكنيسة يجب أن تعتبر كمؤسسة وطنية تسعى إلى إعلاء شأن الوطن ورفع كلمته . فمن واجب الناس على اختلاف طبقاتهم أن يتمنوا لها التقدم واطراد النجاح[2] » .

والهدف الوحيد الذى سعى إليه أرنولد فى جميع مؤلفاته هذه وخاصة كتابه « الأدب والعقائد » كان لاسترداد التوراة مكانتها القديمة وإعلاء شأنها بين طبقة العامة الملحدة . وهذا الهدف كان سامياً فى حد ذاته ، ولذا فإن تحقيقه كان من السهولة بمكان عظيم . وقد أشبهت كتاباته هذه من نواح عدة مؤلفات الكردينال نيومن الكاتب الإنكليزى الشهير . فعرف أن الشك فى المعجزات يقود الناس حتماً إلى إنكار جميع الحقائق السماوية .

رأى أرنولد جمهرة المتعلمين من قومه يخرجون عن عقائد التوراة وأحكامها فحاول إرجاعها إلى قلوبهم بإقناعهم أن مكانتها فى عقول الناس يجب أن لا تبنى على أساس المعجزات التى جاء بها أو على العقائد التى استخلصها الكاثوليك والكلفنيون من ثناياها بل إلى أدبها السامى وإلى روح النشاط والحماسة التى يبعثها السلوك الحسن والتضحية وحب الإنسانية .

فالديانة فى رأيه لم تكن إلا الأخلاق تبعثها العاطفة وطهارة النفس ، والرجل الورع هو الكريم الخلق الحسن الشيم . واندفاعه هذا فى طريق الإخلاص يجب أن يكون ناتجاً عن عقيدة راسخة هى عقيدة العاطفة والميل . أما إذا كان الرجل مضطراً إلى اتباع سنن الأخلاق وتعاليمها فهو ليس بخير كريم . إذ أن الرجل الكامل ، هو من كان مندفعاً برغبته وميوله لا تحت تأثير الطاعة والخنوع .

(يتبع)

فهمى حماد

(١) Paul. Ornald : P. 144.

(٢) Ossay m Chwch Qnd Ribgion : Connold. P. 37.